البحرين والزبارة

تواريخ وأحداث م

القسم الأول

بقلم

عبد الزهراء العويناتي

البحرين



١٤ - الوثيقة

ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي

الشاعر - كل شاعر مرموق - هو ابن عصره يسجل في أبيات قصائده مخاض تجاربه الشخصية في معترك حياته التي هي جزء من عموم حياة زمانه، وتنعكس على أبياته مجابهات البشر التي تحيطه بإزاء بعضهم البعض، وتنطبع كلماته بأوجه أوضاعهم في مسيرة الديمومة الجدلية بين الإنسان وتحريك الكون بما يخدمه في سبيل البقاء، وتتكتل في مضمون البناء الفكري للشاعر وتتجمع في أساليب أدبه وشعره الروح السائد على شعراء وأدباء عصره من حيث الفكرة الأدبية وطريقة أدائها في أسلوبهم المتبع - شعراً أو نثراً .

وهم يتباينون في درجات وحجم تأثرهم بواقعهم العام - بعد تباينهم في حجم تجاربهم الذاتية الشخصية - والذي يتأثر ظله على الأعمال الأدبية للأديب بقدر حجم ذلك التأثر، ومرد ذلك إلى حدود تفاعل الأديب بالأحداث المعاصرة له ومدى ارتباطه بالأعلام البارزين في زمانه الذين كانت لهم الأدوار المؤثرة على مجتمعاتهم سواء أكانت سياسية أو علمية أو اجتماعية - . وربما لا يوجد خبيران مطلعان على تاريخ البحرين والزبارة يتنازعان في كون الشاعر الأديب السيد عبد الجليل الطباطبائي يمثل دوراً طليعياً بين كافة شعراء وأدباء المنطقة الذين تناغموا مع أوضاعها وألقوا بأضواء أحداثها على ثنايا شعرهم ونثرهم .

إن هذا الشاعر الذي هاجر من موطنه البصرة شاباً غضاً لم يتجاوز السابعة والعشرين ينزل الزبارة في شمال غرب شبه الجزيرة القطرية ليسكن بين ظهراني العتوب الذين كانوا قد ظهروا منذ وقت قريب على الساحة السياسية في المنطقة بقوة يضع لها الساسة حساباً ليعيدوا تنظيم معادلاتهم من جديد .

وهو بحكم علمه الذي حصله منذ نعومة أظفاره في مدينته البصرة، ورهافة عارضته الشعرية، يحتل في قلوب شيوخ الزبارة مكاناً عليّاً، وتمر الأيام فيحكم علاقاته الودية مع علمائها وأدبائها الذين حطّوا رحالهم فيها من شتى بقاع المنطقة، ومن جراء ذلك يأتي معه الزمان في مهجره ليصبح من علية القوم، وتكون له أدواره التاريخية في الزبارة ثم في مهجره الثاني البحرين - التي جاءها ساكناً في عام (١٢٢٥هـ - ١٨١٠م) - .

وثوق الارتباط بالسياسيين والطبقة المثقفة، والقرب من الأحداث، ولّد في شعر ونثر الطباطبائي انعكاسات سجلت لنا بعض ما دار من أحداث في ماضي البحرين والزبارة، وسجلت جوانب من حياة بعض أعلامهما .

كان من المفترض في ديوان الشاعر[١] أن نقرأ كمّاً كبيراً من هذه الانعكاسات التاريخية، لكن للأسف يفاجأ الناظر للديوان بضآلة الأضواء التاريخية الأدبية التي تسجل بعضاً من تاريخ البحرين والزبارة .

أجل، هناك في الديوان تسجيل لبعض حوادث ليست لها علاقة بالبقعتين، وفيه ما يفيد عند الكتابة عن حياة أعلام لم يعيشوا فيهما، وحين جمع ماله علاقة بالبقعتين وهذه المضمومات يحصل منها قارئ الديوان على كمٍ كبير من الملامح التاريخية التي اصطبغ بها أدب الطباطبائي .

ولكن نقول : إن الطباطبائي قد عاش زهرة حياته ومعظم عمره في هذين المكانين - البحرين والزبارة -، وكان على ضوء ذلك وبحكم شدة قربه من أحداثهما - التي كانت كثيرة ومرتفعة السخونة - وبسبب قرب صحبته لعلمائهما يفترض أن يتأثر أدبه بما عاصر من أحداثهما وشخصياتهما وأن يفوق ذلك تأثره الفعلي الذي يطالعنا به الديوان .

إذن نحن في بحثنا هذا - بعد إرجائنا تناول شخصيات المكانين الوارد ذكرهما في الديوان إلى بحث آخر - سنعالج هذا المقدار الضيق النطاق من التفاعل الأدبي في شعر ونثر الطباطبائي مع أحداث الزبارة والبحرين، لكن مع هذه الشحة التي اتسم بها الديوان - نظراً لعمق علاقة صاحبه بالبلدين - سيجد قارئ البحث - كما هو اعتقادي - أن هذه المعلومات التاريخية مع قلتها بالغة الأهمية، وسيبقى الديوان من هذه الناحية "وثيقة تاريخية - على حد تعبير الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة - للفترة التي عاشها - الشاعر - في القرن الثالث عشر، وهو صورة صادقة للحياة التي كان أناس ذلك العهد يحيونها من مختلف النواحي الاجتماعية والأدبية والسياسية(٢) .

حملة عمانية على العتوب

قد لا يجد الباحث في تاريخ البحرين الحديث تاريخاً اختلف فيه كالاختلاف على حملة العمانيين على البحرين في عهد السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي(٣) حتى ليلمس القارئ أرقاماً ومعلومات تكاد تكون متناقضة في أغلبها مما يفضي إلى حيرة وبلبلة في استيعاب ذلك الفتح يصعب على المرء الدارس لهذه الواقعة أن يتعداها بعد قراءة العديد من المراجع التاريخية التي تناولتها وهو يحمل في ذهنه صورة واضحة عن مجريات وتواريخ الحملة .

وإذا رمنا الخروج عن دائرة ذلك الاضطراب، وأردنا تحديد تاريخ تلك

الحملة العمانية، فلا مندوحة عن استعراض عامة الأقوال التي ذكرت في هذا الخصوص، ويمكن حصرها فيما يلي :

١ - في كتابه (دليل الخليج) يذهب لوريمر إلى أن السيطرة العمانية على البحرين ابتدأت بعام ١٨٠٠م[٤].

٢ - أما أبو حاكمة فيذكر أن حملة السيد سلطان البوسعيدي قد وقعت في سنة ١٧٩٩م غير أنه فشل في الاستيلاء على المنامة، لكنه حمل مرة أخرى عليها وتم له الاستيلاء على البحرين سنة ١٨٠٠م، ثم استطاع العتوب إستعادة سلطتهم على البحرين، فعاد السيد سلطان مرة ثالثة ليهاجم الجزيرة من جديد عام ١٨٠٢م، إلا أنه فشل فيما رمى إليه نظراً لمساعدة الوهابيين الفعالة للعتوب في الاحتفاظ بالبحرين[٥].

٣ - بينما روث في كتابه (لمحة عن تاريخ عمان ١٧٢٨ - ١٨٨٣م) فيذكر أن البحرين وقعت بيد السيد سلطان في عام ١٧٩٩م، غير أنه في (مذكرات حول نجد) يقرر أن السيطرة العمانية على البحرين قد امتدت منذ عام ١٨٠١م[٦].

٤ - وفي مؤلفه (لمحة عن العتوب) يحدد واردن تاريخ الهجوم العماني بعام ١٨٠٠م، وفي مؤلفه الآخر (لمحة عن الوهابيين) يحدده بعام ١٨٠١م[٧].

٥ - إلا أن مايلز في كتابه (سيرة السيد سلطان) والتقرير السنوي للإدارة البريطانية في الخليج (١٨٧٩ - ١٨٨٠م) يؤكدان على أن بداية سيطرة العمانيين على البحرين كانت سنة ١٨٠١م[٨].

٦ - أما كيلي فيذكر أن محاولات السيد سلطان للهجوم على البحرين فكانت ثلاثاً، ففي عام ١٧٩٩م حاول الهجوم على البحرين فمني بالفشل، ثم حاول ثانية سنة ١٨٠٠م ونجح في إرغام العتوب على دفع الزكاة، ولكنهم سرعان ما توقفوا عن أدائها مما اضطره إلى شن حملة أخرى عليهم انتهت بانتصاره ودخوله البحرين، ولكن كيلي لم يعين سنة انتصاره - هذا[٩].

٧ - لكن مؤلفاً (**البحرين عبر التاريخ**) فيبدو مما كتباه أنهما يذهبان إلى أن السيد سلطان لم يقم بمحاولات عدة في دخول البحرين، وأن سيطرته عليها كانت في سنة (١٢١٧ -

١٨٠٢م)، ويستندان في تصحيح ذلك إلى المصادر التالية :

[أ] رسالة القبطان "ستون" الممثل السياسي للدولة البريطانية والمقيم في مسقط، وهي رسالة بعثها لحكومته – كما ذكر المؤلفان – في ٢٠ يوليو ١٨٠١م يقول فيها : "إن غزو البحرين بات وشيك الحدوث" .

[ب] ما ورد في مخطوط (عقد جيد الدرر في معرفة حساب نوروز أهل البحر) لكاتبه جابر بن عبد الخضر بن هلال بن محمد بن بدر، وهو شاهد عيان سجل حوادث هذا الهجوم بقلمه وحددها باليوم والساعة – وينقل المؤلفان نص المخطوط وهو يؤيد ما قالاه حيث يصرح ابن عبد الخضر بوقوع غزو السيد سلطان في سنة ١٨٠٢م[١٠] –، وبعد نقل ما يرويه ابن الخضر يمضي المؤلفان ليقولا : "هذه – أي رواية ابن الخضر – هي الرواية الصحيحة التي نعتمد عليها وتصدقها الرواية المحلية، أما ما أورده واردن في مذكراته من أن سلطان بن أحمد البوسعيدي دخل البحرين في عام ١٧٩٩م/ ١٢١٤هـ، ثم دخلها ثانية بعد سنة، وثالثة في السنة التي تليها، فإن واردن كتب بعد عقدين من السنين وهو بعيد عن الأحداث، إذ كان يكتب مذكراته سنة ١٨١٩م وهو في الهند، وقد أخذ عنه لوريمر وكيلي وطائفة من المؤرخين المحدثين، بينما كانت الظروف المحيطة بسلطان بن أحمد في السنوات التي أوردها واردن غير مناسبة له للهجوم لانشغاله في الحوادث الداخلية في بلاده، أما إذا قالوا أن الخلاف بدأ سنة ١٧٩٩م وامتد خلال السنين التى ذكروها حتى حدثت المعركة في ١٨٠٢م فلا يستبعد ذلك"[١١].

والذي أراه أن رواية ابن عبد الخضر لا تتنافى مع ما يرويه كيلي، فالأخير كان ما كتبه عن هذه الحادثة – في اعتقادي الشخصي – هو عين الحقيقة وكبدها، وأدق وأفضل ما قاله كاتب أجنبي بخصوصها، وليس هنالك من تعارض – قد يذكر – بين الروايتين، ويدعم صحة كل منهما :

إنه عندما كان جون مالكولم في طريقه من بومباي إلى فارس والعراق في مهمة رسمية اتجه موفداً من قبل حكومة الهند إلى مسقط وبلغها في ٨ يناير عام ١٨٠٠م، وكان يود أن يقابل السيد سلطان بن أحمد حتى يوقع معاهدة مع الإنجليز بخلاف المعاهدة التي وقعها

عام ١٧٩٨م معهم، ولما سأل عن السيد سلطان قيل له إنه ذهب يغزو البحرين، وفي عودة السيد سلطان من غزو البحرين التقى به مالكولم في عرض البحر ووقعا معاهدة في ٢١ شعبان عام ١٢١٤هـ الموافق ١٨ يناير عام ١٨٠٠م[١٢].

إن عدم تواجد السيد سلطان في الأيام الأولى من عام ١٨٠٠م في بلاده عمان واشتراكه في غزو البحرين لدليل قاطع على أن البوسعيديين قد حملوا على عتوب البحرين في السنة السابقة.

لكن ما الذي يثبت أنهم أعادوا الكرة مرة أخرى فهاجموا العتوب في العام اللاحق - ١٨٠٠م - ؟.

إن هذا السؤال يعيد إلى أذهاننا ما قاله مؤلفا كتاب (البحرين عبر التاريخ) حول اعتماد المؤرخين الغربيين في تحديد تاريخ غزو السيد سلطان للعتوب على ما كتبه واردن، فليس لدينا ما يفيد الجزم بأن مؤرخي الغرب الذين اتفقت غالبيتهم العظمى على حصول حملة عمانية على جزر البحرين في هذه السنة لم يكن استنادهم للقول بهذا التاريخ على ما كتبه واردن.

من جهة أخرى لا نستطيع التيقن من أن هؤلاء المؤرخين لم يرجعوا في قولهم بالغزو الثاني إلى مستند وثائقي بريطاني أو غير بريطاني قد سبقٍ واردن في القول به وتحديد وقوعه، فضلاً على أن تأخر واردن في الكتابة عن الفتح العماني للبحرين بما يساوي أقل من عقدين من الزمن لا يقتضي التشكيك في صحة ما كتب، فلعله رجع إلى ما يثبت حدوث غزو ثانٍ في عام ١٨٠٠م ولاسيما إذا وضعنا في الاعتبار أنه أراد في كتابته حول العتوب إعطاء تقرير تاريخي لدوائر الاستعمار البريطاني، وإذا أراد ذلك فمن الضرورة بمكان أن يعتني أقصى الاعتناء بدقة المعلومات التي يقدمها لتلكم الدوائر مما يلقي على عاتقه عبء تقصي جميع الوثائق البريطانية التي بين يديه والمتوفرة له بسهولة لكونه عضو حكومة بومباي ومساعد المقيم في الخليج، ولسنا نتصور خلو هذه الدوائر من وثائق كتبها مندوبوها ومعتمدوها ورجالاتها المتواجدون في الخليج ذكرت فيها هذه الواقعة لكونها حدثاً مهماً وكبيراً بالنسبة للمنطقة ليس من السهل وقوعه ومروره دون تسجيله في بضع وثائق إن لم يكن في وثائق كثيرة[١٣]، وعدم وجود هذه الوثائق في وقتنا الحاضر - على فرض عدم وجودها - لا يعني أنها لم تكتب، لأن من المعلوم أن كمًّا ضخماً من

الوثائق البريطانية التي سطرها رجال شركة الهند الشرقية الإنجليزية قد تلف أو أُتلف، ويُستبعد ضياع أو تلف تلك الوثائق خلال أقل من عقدين من الزمن ذلك لأن الهدف من كتابتها يفرض وضع أقصى أنواع الحماية لها من الضياع أو التلف لاسيما مع عدم مرور مدة طويلة من كتابتها قد تفقد خلالها بعض أو كل هذه الوثائق .

وعلى أي حال لا يوجد مبرر لدينا يدعونا لرفض تكـرار السيد سلطان البوسعيدي لغزوه العتوب مرة ثانية في ١٨٠٠م مع وجود هذا الاتفاق الكبير على وقوعه وانعدام معارضة حصول الغزو الثاني لرواية ابن عبد الخضر المؤكدة على غزو آخر في عام ١٨٠٢م، والمؤرخ البريطاني كيلي المبَرَّز في الاطلاع على تاريخ الخليج لا يفوته - كما مر - ذكر السبب الذي دفع بالسيد سلطان للغزو ثانية، وهو سبب معقول حيث أن النصر لم يحالفه في حملته الأولى على العتوب فاضطر إلى حملة أخرى تكون - بطبيعة الحال - بعُدة وعدد أكثر وأفضل من الحملة التي سبقتها .

بيد أن الحملتين لم تكونا حاسمتين لصالح البوسعيديين كما لم تكونا خطرتين على تاريخ العتوب السياسي كالحملة الثالثة، فإن الحملة الأولى باءت بالإخفاق والثانية يبدو أن نتائجها لم تتجاوز فرض دفع الزكاة على العتوب والتي لم تمر عليها عدة شهور إلا وتخلص العتوب من الالتزام بها، ولهذا كانت الحملة الثالثة هي الأجدر بتحديد تاريخ الوقوع حيث تم فيها للعمانيين السيطرة على البحرين واضطر العتوب إلى النزوح عنها إلى الزبارة وغيرها[١٤] .

وقد كان كيلي المؤرخ الحذر المحتاط بالنسبة لتاريخ وقوع الغزو العماني الثالث قد اكتفى بالإشارة إلى حصوله دون تحديد سنة حدوثه، وأما بقية المؤرخين وبالخصوص الغربيين فإنهم لم يتفقوا - كما رأينا - على سنة معينة له بعد عدم اتفاقهم على عدد مرات الحملات العسكرية التي قام بها السيد سلطان على البحرين .

غير أن مصنفَيْ (البحرين عبر التاريخ) قد وفقا إلى تحديد تاريخه بما مر علينا عندما رجعنا إلى كتابة ابن عبد الخضر أحد من عاصر ذلك الفتح ودونه بالساعة واليوم والشهر والسنة فكان تسجيلاً غاية في الدقة، لكن قد لا يطمئن إلى رواية ابن عبد الخضر حيث لا تفيد - كما يقول علماء أصول الفقه -

إلا خبر الواحد الذي لا يقطع الشك، وإن ابتغينا حينئذ اليقين الذي يبتر الشك فليس إلا ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي باتراً وقاطعاً له، ففيه ما يعضد رواية ابن عبد الخضر ويؤكدها بما لا يترك مجالاً للتردد في القول بصحتها والأخذ بها، فهاهي السطور الممهدة للقصيدة الرابعة من الديوان(١٥) - والتي أنشأها الطباطبائي مجاوباً لصاحبه عثمان بن سليمان بن داود البصري (١١٧٠ - ١٢٢٦هـ) تشخص لنا أن الغزو كان واقعاً في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م وهي السنة التي قال فيها الطباطبائي قصيدته - هذه - عندما أرسلها من البصرة إلى صاحبه بالزبارة التي وقعت إذ ذاك - كما تذكر هاتيك السطور - تحت حصار أسطول العمانيين(١٦) .

إضافة إلى هذه المعلومة التي تتضافر مع رواية ابن عبد الخضر في التأكيد على تحقق الحملة الثالثة للسيد سلطان البوسعيدي على العتوب في عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م تزودنا سطور التمهيد بمعلومة تاريخية مهمة أخرى، فهي تذكر أن محاصرة الزبارة - والتي كانت كما يظهر جلياً متزامنة مع محاصرة البحرين - قد دامت أشهراً، وهو الأمر الذي يتلاءم مع رسالة القبطان (ستون) عندما أحاطت قارئها علماً بوشوك ابتداء العمانيين بغزو البحرين في ٢٠ يوليو ١٨٠١م، وهذا معناه - إذا أعطينا أقصى مدة لتفسير لفظة [الوشوك] بثلاثة أشهر - أن الغزو الثالث ابتدأ في النصف الثاني لعام ١٨٠١م وأتم أهدافه بفتح البحرين عام ١٨٠٢م، الشيء الذي يصحح قول من ذكر بأن عام ١٨٠١م قد شهد ابتداء التواجد العماني عند جزر البحرين، ذلك لأن تمهيد القصيدة - المشار إليها - لم يحدد تاريخ ابتداء الحصار وإن صرح بوقوعه في عام ١٨٠٢م لكن مع مقارنة رسالة (ستون) بالتمهيد نخرج إلى أن التمهيد والرسالة يصحح أحدهما الآخر مما ينتج عنه صحة الأقوال التي ذهبت إلى تحديد سنة ١٨٠١م تاريخاً لابتداء الحضور العماني على شواطئ البحرين والذي - كما أعتقد - قد فسره خطأ أصحاب تلك الأقوال على أنه بداية السيطرة العمانية على البحرين .

وإذا اتبعنا أسلوب المقارنة بين رواية ابن عبد الخضر ورسالة (ستون) وأحببنا الاقتراب من تحديد المدة التي

استغرقها حصار السيد سلطان البوسعيدي للبحرين، فإنها لن تقل عن سبعة أشهر تنتهي في عصر يوم الجمعة الثاني من أكتوبر لعام ١٨٠٢م وذلك على حسب تحديد ابن عبد الخضر لوقت توقيع المعاهدة بين السيد سلطان والعتوب[١٧] والتي على إثرها تم للعمانيين السيطرة على البحرين، وهذه السبعة الأشهر – أو أكثر منها بقليل – تتفق مع طول غربة الطباطبائي عن الزبارة حيث يقول يشتكيها لصاحبه عثمان بن سلمان البصري في قصيدته :

طويل اغتراب وافر الشوق كامل

الغرام وحبي ليس بالمتقارب[١٨]

ولعل مما يتفرد به التمهيد والقصيدة المهد لها على كافة ما كُتِب عن حملة السيد سلطان الثالثة أفادتهما ثلاثة أشياء لها قيمتها التاريخية :

أولها : إن الحملة قد امتدت مساحتها لتشمل بقعة تصل إلى الزبارة فتحاصرها قوات البحرية العمانية، وهو ما له دلالة على أن الحملة قد ضيقت الخناق على عتوب البحرين وأغلقت دونهم أي منفذ قد ينتقلون إليه، وربما كان هذا التخطيط العسكري مردُّه الدروس التي اتعظ بها السيد سلطان من حروبه مع العتوب ومن طرقهم في مجابهتهم لأعدائهم حيث يلجأون إلى الزبارة حينما يضعفون في الصمود أمام عدوهم ويتربصون به الفرصة ليستردوا منه البحرين في حال ضعف سيطرته عليها .

إلى جانب هذا قد يكون من دوافع حصار الزبارة أيضاً في ذات الوقت الذي تحاصَر فيه البحرين منع وصول أي مدد يرسل للعتوب من جهة العتوب الذين مازالوا باقين في الزبارة بعد استيلائهم على البحرين، وتؤيد الالتفات إلى هذه النقطة لدى السيد سلطان رواية ابن عبد الخضر حيث ذكرت أن الأسطول العماني قد انتشر حتى القطيف والعقير وحاصرهما بحراً[١٩] مما يشير بقوة إلى إرادة العمانيين إحكام طوق حصارهم على العتوب للحيلولة دون مناوراتهم والاستعانة بالزبارة أو السعوديين، بل ربما ما تذكره بعض المصادر من تهديدات السيد سلطان لعتوب الكويت وامتداد تواجد أسطوله حتى شواطئها[٢٠] ما يدل على مدى إجادة العمانيين لإحكام طوق حصارهم على

عتوب البحرين وفصلهم عن أي مساعدة من أية جهة قد تقدمها لهم .

ثانياً : واتساع العمليات العسكرية للأسطول العماني لم يتأت له القيام بها إلا لأنه كان على حجم كبير من القوات البحرية والسفن الضخمة الكثيرة، وليس هناك من المصادر ما يؤكد لنا ذلك سوى ديواننا - هذا - حينما يفصل الطباطبائي بعض الشيء في تعداد السفن الغازية ويلمح إلى كثرة بحارتها بقوله :

نَأَت دار من أهوى وعز مزارها
ومن دونها قد حال قرع الكتائب
وسُدَّ طريق القرب منها بخمسة
وخمسين جلاً من عظام المراكب
ملاءًا جموعاً للعدا كل جحفل
يدك الرواسي من زئير المقانب(٢١)

ففي هذه الأبيات يبين الطباطبائي بأن سفن الغزو العماني كانت من كبار المراكب وعظامها، وأن عددها يصل إلى خمس وخمسين سفينة وكل واحدة منها مملوءة بالمقاتلين الأشداء .

بيد أن البيت الثاني يختلف ضبطه في كتاب (البحرين عبر التاريخ) عن ضبطه في الديوان حيث ضبط في الأول كالآتي :

وسُدَّ طريق البعد بيني وبينها
بستين جلاً من عظام المراكب(٢٢)

فعلى هذا الضبط يرتفع الرقم بالسفن المشاركة في غزو البحرين ليصل إلى ستين سفينة، وبالتالي فمن الطبيعي - عادة - أن تكون أعداد الرجال الغازين على وفق هذا التعداد للسفن يفوق أعداد الرجال على ضبط عدد السفن حسبما في الديوان .

وأما ثالث الأشياء التي تفردت بها القصيدة - المشار إليها - وتمهيدها : فهو وجود العناصر الموالية من أبناء الأراضي المغزيَّة للغزاة العمانيين، وقد ظهر ولاؤهم في بث الأخبار الضخمة للأحداث المصاحبة للغزو والمعظمة لبأس العساكر العمانية، وفي العمل على إذاعة ما من شأنه إدخال الرعب في قلوب من تمنيه نفسه تقديم المساعدة للعتوب وزرع الخوف في نفوس من يكنون لهم الحب والولاء، وقد انتشرت تلكم العناصر في أرجاء المنطقة وأوصلوا دعايتهم إلى مدينة البصرة حتى طرقت مسامع شاعرنا الطباطبائي فآلمته الأخبار التي آلت باله، وانقطعت الأخبار الصحيحة دون بلوغها البصرة مما زاد من حزن وكمد الشاعر، فلنقرأ -

معاً – التمهيد وهو يشرح لنا حالة الشاعر – هذه – : **"وقال الشاعر مجوباً لصاحبه عثمان بن سلمان عن مقاطيع ومواليا رفعها الشاعر إليه وهو إذ ذاك في البصرة وقد أقلقه محاصرة سلطان بن سعيد إمام عمان للزبارة، وانقطاع الخبر الصحيح عن الأهل والأولاد مدة أشهر، وتزوير أكاذيب يروجونها دواعي سلطان ويذيعون عنها أخباراً مؤلمة، فقلق الشاعر لذلك، فأنشد هذه القصيدة مشيراً بها لنفس الواقع"**(٢٣) .

وهذا الذي جاء في التمهيد يؤكده الشاعر في القصيدة ببيته :

فلا خبر بالجزم يرفع عنهم
وحالي في حفض من الشوق ناصب(٢٤)

وعند التأمل في الحصار العسكري الذي ضربه السيد سلطان البوسعيدي على البحرين وعلى الجهات الأخرى التي من المحتمل أنها تقدم العون لعتوب البحرين، ومع التأمل – أيضاً – في عملية نشر الأخبار الدعائية لصالح العمانيين وضد العتوب المواكبة للحصار تتضح حينذاك الخطة المحكمة العسكرية والسياسية التي حبكتها العقلية الذكية للسيد سلطان، وقد استطاع بإجادته للحصار أن يمنع تسرب أخبار الأحداث لبقية بلدان المنطقة عن طريق خصومه العتوب مضيقاً بذلك عليهم إخراج الأخبار التي تصب في صالحهم، وقد عبر في التمهيد عن ذلك بـ "انقطاع الخبر الصحيح"، وهو تعبير يدل من جهة أخرى على تماسك الحصار والتطويق التام .

وقد خطر لي فجأة وأنا أكتب هذه السطور خاطر ظريف قد يهدم صحة ما أورده الشاعر في أبياته وهو يعدد السفن ويصف حجمها ويشير إلى أعداد القوات العمانية وضخامتها، والقارئ اللبيب أظنه قد فهم ما سأذكره قبل ذكري له، وهو هل ما قاله الطباطبائي شاعرنا في قصيدته حول العساكر العمانية وعدد سفنها هو من تلكم الأخبار التي يروجها عملاء السيد سلطان أو هو من مصادر إخبارية يثق بها جاءته من الطرف الآخر أعني العتوب المحاصرين في البحرين ؟، تساؤل يشكك فيما ذكر في ثاني الأشياء التي تفردت بها القصيدة الرابعة من ديوان الطباطبائي وتمهيدها على غيرها من مصادر التاريخ . وما يلوح في سياق تعبير التمهيد يزيد هذا التشكيك تفاقماً وتأكيداً .

عبد الزهراء العويناتي – البحرين

الهوامش

١ – طبع ديوان الطباطبائي المسمى بـ (روض الخل والخليل ديوان السيد عبد الجليل) طبعته الثانية في عام (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) بتحقيق ياسين الشريف، وعلى هذه الطبعة سنعتمد، وسنعبر عنه في هوامش البحث بـ (الديوان) اختصاراً .

٢ – اقرأ مقدمة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة للديوان .

٣ – وصف بأنه طويل القامة، جميل الصورة، شجاع بطل صنديد، لا يعبأ بكثرة أعدائه إذا كان في قليل من أهل خاصته فضلاً عن الكثير، وكان ينصف من الظالم للمظلوم .

سالم بن حمود السيابي : عمان عبر التاريخ : ٢٢٥/٤ .

٤ – كيلي : بريطانيا والخليج : ١٦٥/١ – الهامش – .

٥ – تاريخ الكويت : الجزء الأول، القسم الأول / ٢٦٤، ٣٠٣، ٣٠٥، تاريخ شرقي الجزيرة العربية/ ٢٠٥ .

٦ – كيلي : مصدر سابق : ١٦٥/١ – الهامش – .

٧ – انظر ص : ١٧٩ و ١٩٠ من مؤلفي واردن المنشور نصهما في القسم الثاني من الجزء الأول لكتاب أبي حاكمة (تاريخ الكويت)، وراجع : كيلي : مصدر متقدم : ١٦٥/١ – الهامش – .

٨ – كيلي : مصدر سابق : ١٦٥/١ – الهامش – .

٩ – نفس المصدر : ١٦٥/١ .

١٠ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة والدكتور علي أباحسين : البحرين عبر التاريخ : ٢٥٤/٢ .

١١ – نفس المصدر : ١٦٤/٢ .

١٢ – أبو حاكمة : تاريخ الكويت : الجزء الأول، القسم الأول/٣٠٣ – الهامش –، ٣١٦، الجزء الأول : القسم الثاني/٩٧ – ١٠٦ .

١٣ – تواجد الإنجليز في منطقة الخليج بشكل منتظم منذ العقود الأولى للقرن السابع عشر الميلادي وتمثل في شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وربما أقدم الوثائق التي كتبها رجال الشركة عن الخليج هي العائدة إلى سنة ١٧٢٢م .

لمزيد من الإطلاع على تاريخ وثائق الشركة يقرأ : عبد الأمير محمد أمين ومصطفى عبد القادر النجار : صور السجلات الهندية ومحفوظاتها من وثائق العراق وبقية أقطار الخليج العربي والجزيرة العربية .

١٤ – أشير إلى تفرقهم في : كيلي : مصدر متقدم : ١٦٥/١، أبو حاكمة : مصدر سابق : الجزء الأول، القسم الأول /٣٠٣ ، ٣١٠، الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أباحسين : مصدر متقدم : ٢٥٨/٢ .

١٥ – يتميز الديوان بسطور من التمهيدات تتقدم قصائده ونثرياته تتحدث عن دوافع إنشاء الشعر أو النثر وتاريخ الإنشاء والأجواء والحيثيات التي صاحبته، وفي بحث لنا حول الشاعر أثبتنا أن هذه التمهيدات – باستثناء بعضها ويعرف بالقرائن – كانت أساساً مستلهمة من تمهيدات دونها الشاعر لمقطوعات أدبه، وصاغها – من ثم – منظم الديوان وجامعه .

١٦ – الديوان / ٨ .

١٧ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبا حسين : مصدر سابق : ٢٥٥/٢ .

١٨ – الديوان / ١٠ .

١٩ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أباحسين : مصدر تقدم : ٢٥٥/٢ .

٢٠ – أبو حاكمة : تاريخ الكويت : الجزء الأول، القسم الأول / ٢٦٥ – الهامش –، ٣٠٣ .

٢١ – الديوان /١٠ .

٢٢ – الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أباحسين : مصدر سالف : ٢٥٦/٢ .

٢٣ – الديوان /٨ .

٢٤ – نفس المصدر /١٠ .